مقدمة الناشرين

كتاب « أزهار الرياض فى أخبار عِياض » ، من خير ما أُلّف فى أدب المغاربة ، نرجو أن ننشر بنشره آية فَخَار من مجد علماء الإسلام ، وأن نضيف إلى الأدب العربى الخالد ، صفحة مُشْرِقة من الأدب المغربى الزاهى الألوان ، وأن نضع بين يدى العلماء والنقاد خير الوثائق وأنفس المصادر التى يُعْتمد عليها فى تاريخ الآداب .

أما مؤلفه فهو حافظ عصره فى علوم الدين ، وحُجة زمانه فى علوم الدنيا ، وخاتمة أدباء المغرب ، الذى جمع الشعر والكتابة والخطابة ، والمحاضرة والمسامرة ، شهاب الدين أحمد بن محمد المَقّرى التِّلِمسَانِىّ ، صاحب « نفح الطيب » وغيره من الكتب الممتعة . تُوُفى سنة إحدى وأربعين وألف للهجرة بالقاهرة .

وأما المؤلَّف فى ترجمته وسيرته فهو قاضى المغرب الأجل ، وحافظه الأكبر ، الإمام الطائر الصيت ، عِياض بن موسى اليَحْصُبى السَّبتى صاحب الشفاء ومشارق الأنوار وكثير من المصنفات الجليلة فى الدين وعلوم اللغة والنحو والأنساب . تُوُفى سنة ٥٤٤ هـ بمراكش .

وكتاب أزهار الرياض فى أخبار عياض ، هو كصِنْوه نفح الطيب ، فى أخبار لسان الدين بن الخطيب ، كلاهما قد تضمن ترجمة واسعة خصبة النواحى ، لعَلَم مفرد من أفذاذ الرجال فى المغرب والأندلس ، وقد استطاع مؤلفهما أبو العبّاس المقّرى أن يجعل كلا من صاحبى الترجمة مركزا لدائرة معارف تاريخية وأدبية ، تحوى أخبار عصره ومصره ، لا ، بل تستوعب كثيراً من أخبار الأجيال التى تعاقبت فى الأندلس والمغرب إلى زمان وجوده ، وهما لذلك جديران أن يُعَدّا من أعظم الأركان التى يقوم عليها تاريخ تلك البلاد .

وبين الكتابين وجوه من الشبه ، وتشابه فى المزايا ، لا نريد إحصاءها فى هذه المقدمة الموجزة ، وبحسبنا أن نذكر هنا المنهج الذى انفردا به دون أكثر كتب التراجم العربية القديمة ، فإن مؤلفنا الشيخ المقّرى يرسُم للترجمة خطة واضحة ، ويرتب عناصرها ترتيباً حسناً ، ويتغلغل فى التفاصيل ويتعمق ، ويتتبع أخبار المترجَم حتى قبل ولادته ، ويتجسس عن أوليته وأسرته ، ويبحث عن نشأته فى صباه وشبابه وكهولته ، ثم يذكر شيوخه الذين أخذ العلم عنهم ، فى كثير من التفصيل والعناية بذكر مؤلفاتهم ، ويخص بالعناية النِّتاج الأدبى للمترجم ، ويذكر تآليفه ، وتصرفه فى الحياة ، وعمله فى خدمة السلطان ، ووفاته ، وآراء الناس فيه .

منهج المؤلف فى أزهار الرياض ونفح الطيب متأثر تأثراً مّا بمنهج لسان الدين ابن الخطيب فى كتاب الإحاطة فى أخبار غَرناطة ، فإن هذه الكتب تتشابه فى العناصر التى تتألف منها الترجمة ، وفى أسلوب الإنشاء ، إلا أن لسان الدين كان أميل إلى مجانبة الاستطراد الذى فشا فى تواليف المقرى ، وطَبَعَها بهذا الطابعَ الخاص .

ألف المقرى كتاب أزهار الرياض فى مدينة فاس ، فى المدة التى بين سنتى ١٠١٢ و ١٠٢٧ للهجرة ، إذ كان قد نزح عن وطنه لأسباب سياسية ، واتخذ فاس مقرا له ، وكان الباعث له على تأليفه رغبة أهالى بلده تِلِمْسان فى التعريف بالقاضى عِياض ، عالم المغرب الأوسط وقاضيه الأشهر ، وقد ألَمّ فى هذه الترجمة بكثير من شئون بلاد الأندلس ، وذكر طائفة من أخبار لسان الدين بن الخطيب وأحوال المسلمين فى عصر الجلاء عن الأندلس ، على سبيل الاستطراد ، ثم ألّف كتاب نفح الطيب بعد سنة ١٠٢٨ فى القاهرة ، استجابة لرغبة بعض أعيان دمشق وعلمائها فى التعريف بلسان الدين بن الخطيب فذكر كثيراً من شئون

الأندلس فى تفصيل وترتيب عجيبين . ومن أجل هذا يظهر للمتأمل أن المؤلف كان مضطرا أن يكرر فى نفح الطيب طائفة من الأخبار التى ذكرها من قبل فى أزهار الرياض ، لبعد ما بين الأفقين اللذين ظهر فيهما الكتابان .

وقد يمتاز أزهار الرياض ، فوق اشتماله على ترجمة القاضى عياض ، بطائفة كبيرة من الأخبار والنصوص المغربية والأندلسية ، التى لم ترد فى نفح الطيب ولا فى غيره من الكتب المطبوعة حتى الآن ، وإنما بادت أصولها ، أو هى لا تزال سرا مطويا فى خزائن الكتب لم تنشره المطابع بعد . ولذلك يُعَد نشر هذا الأثر الجليل اليوم ثروة جديدة تضاف إلى ما سبق نشره من آثار المغرب والأندلس فى عالم الدراسات العربية .

وكان الفضل فى إخراج هذا الكتاب الجليل ، على هذا الوضع الأنيق ، « لمكتب التبادل الثقافى » التابع للمعهد الخليفى بتطوان ، الذى أسسه سمو الخليفة المعظم **مولاى الحسن بن المهدى** ، فقد اختط خطة موفقة فى نشر الكتب النفيسة ، التى تحيى آثار السلف ، وكان هذا الكتاب باكورة أعماله ، وأول ثماره .

ولما عُهِد إلينا فى تحقيق هذا الكتاب ، بالأسلوب العلمى الذى يجرى عليه علماء المشرقيات ، فتشنا عما يوجد من أصوله المخطوطة والمطبوعة فى دار الكتب المصرية ، فعثرنا منه على النسخ الآتية :

الأولى : النسخة المخطوطة المرموز لها فى حواشى هذه الطبعة بالحرف (ط) ، ورقمها فى دار الكتب المصرية (٢٠١٣ تاريخ) وهى فى ألف ومئة وسبعين صفحة ، من القطع المتوسط ، طول الجزء المكتوب فى كل منها عشرون سنتيمتراً وعرضه عشرة . وهى مخطوطة بخطوط مختلفة ، فالست والأربعون صفحة الأولى بخط مغربى جميل ، وما بعدها إلى صفحة ١٠٥٨ بخط نسخى معتاد ، ويتلو ذلك

اثنتا عشرة صفحة ومئتان تتضمن الروضة الثامنة ، وهي بخط مغربي مختلف النوع ، أقل جودة من الخط الذي بدئ به الكتاب .

وبهذه النسخة خرم في موضعين :

الأول في الروضة الرابعة ، عند صلاة سيدي حسين الزرويلي وترجمة الشيخ أبي إسحاق بن الحاج ، وقد ترك الكاتب صفحتين خاليتين جاء بعدهما تتمة ترجمة ابن الحاجّ ، ثم وصل الكلام بذكر صلاة الجيلاني صفحة ٨٣٤ ، والثاني بعد تمام الروضة الخامسة ، ويشمل الروضتين السادسة والسابعة جميعهما ؛ ولا نعلم في كم ورقة تكونان .

وجاء في آخر هذه النسخة بالخط المغربي ما نصه :

« انتهى التأليف المبارك بحمد الله وتوفيقه ، وعلى نهج السلف الصالح وطريقه ، ليلة الاثنين من شهر الله المعظم رمضان ، بعد ما مضى منه عشرون يوما ، من سنة ثلاث وأربعين بعد المئتين والألف ، غفر الله لكاتبه ولمالكه » .

وبعد ذلك كلام قد طمس طمساً فلم نتبيّنه ؛ يحوي اسم المالك والناسخ للكتاب .

وهذه النسخة كما قدمنا ليست من خط كاتب واحد ، كما أنها ليست كاملة ولا جيدة التصحيح .

الثانية : نسخة الجزء الأول المطبوع بتونس ، بالمطبعة الرسمية العربية سنة ١٣٢٢هـ ، وهي التي رمزنا لها في الحواشي بالحرف (ت) وهذا الجزء في ٣٤٠ صفحة من القطع المتوسط ، في كل صفحة عشرون سطراً ، وتنتهي بترجمة لسان الدين ابن الخطيب ، وهذه الطبعة خالية من الحواشي والشروح والفهارس ، وفيها كثير من مواضع النقص ومن التحريف والخطأ المطبعي .

الثالثة : النسخة المحفوظة بالخزانة التيمورية فى دار الكتب المصرية ، ورقمها (٧٩٤ تاريخ) ، وهى فى أربعة أجزاء :

الجزء الأول منها هو المطبوع بتونس المقدم ذكره ، المرموز إليه فى حواشى طبعتنا بالحرف (ت) .

والجزء الثانى مخطوط يحتوى على بقية الروضة الأولى ، وتبقى منها بقية تأتى فى الجزء الثالث .

والجزء الثالث يتضمن بقية الروضة الأولى كلها وتنتهى فى الصفحة ٤٣ ، والروضة الثانية كلها إلى الصفحة ١٠٥ ، ثم الروضة الرابعة جميعها إلى نهاية هذا الجزء فى صفحة ٤٤٢ .

والجزء الرابع يحوى الروضة الرابعة من أوله إلى الصفحة ٣٠٥ ثم الخامسة إلى الصفحة ٤٥٠ .

وهذا الجزء ينتهى بآخر رحلة أبى عبد الله المقرى . وفى نهايته بخط المرحوم أحمد تيمور باشا ما نصه :

« والروضة السادسة والسابعة والثامنة تأتى فى جزء خامس » . وليس لهذه النسخة جزء خامس فى الحقيقة ، وهى أجود خطًّا من النسخة (ط) .

وجاء فى آخرها أيضاً أنها نقلت من نسخة قديمة فى مكتبة الملك الظاهر بدمشق ، وأن كاتبها هو محمد صادق فهمى المالح سنة ١٣٤٥ هـ

والنسخ الثلاث من هذه الأصول متشابهة فى كثرة مابها من الخطأ والتحريف والكلمات الغامضة ، التى تصعب قراءتها أو تحار فى فهمها العقول .

وقد جعلنا النسخة (ط) أساساً للطبع ، وعارضنا بها الجزء الأول المطبوع بتونس ، وأثبتنا ماوجدناه من خلاف بينهما بالزيادة والنقص ، وصححنا الأخطاء

اللغوية والنحوية والهجائية الكثيرة ، ولم نكتف بهذا ، بل كنا نفتش عن كل خبر فى مظانّه من الكتب المطبوعة ، مثل نفح الطيب للمؤلّف ، والإحاطة لابن الخطيب ، وتاريخ ابن خلدون ، والاستقصا للسلاوى ، كما كنا نلجأ فى شرح الكلمات الأندلسية والمغربية التى لم ترد فى المعجمات العربية ، إلى تكملة المعجمات العربية للعلامة دُوزى ، وجعلنا كل ملاحظاتنا حواشى فى أسفل صفحات الكتاب إيثاراً لتعجيل الفائدة للقارئ . ولم نشرح من مفردات الألفاظ إلا ماظننا أنه يغمض على القارئ المتوسط ، وما اعتقدنا أن معجماته ليست فى أيدى جميع الناس ، وتركنا بعد ذلك الفرصة لذهن القارئ ، لينشط إلى البحث عما يروم البحث عنه من معانى الأشعار ، ولم نشرح شيئاً من ذلك إلا ما كان ضروريا لابد منه .

وقد وضعنا فى الهوامش الجانبية الخارجية عناوين للمعانى الجزئية ، لتجزئة الموضوع الواحد المطول ، إلى عناصره التى يتألف منها ، وفى ذلك إراحة للذهن ، وتفصيل لمجمل الموضوع ، وتنبيه على مواضع الانتقال ؛ ووضعنا فى الهوامش التى فى الجهة الداخلية أرقام صفحات النسخة المخطوطة المرموز إليها بالحرف (ط) أمام السطر الذى تبدأ عنده الصفحة الجديدة من الأصل المخطوط ، لنسهل المضاهاة على من أراد أن يتتبع ذلك الأصل ، ويعارض به طبعتنا هذه .

وقد عملنا لهذا الجزء فهارس مُنوَّعة ، تيسيراً للبحث والمراجعة .

والله نسأل أن يوفق المعهد الخليفى ويوفقنا إلى إخراج البقية من أجزاء هذا السفر الجليل ، إنه أكرم مسئول ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ؟

مصطفى السقا ابرهيم الابيارى عبد الحفيظ شلبى

القاهرة فى أول نوفمبر سنة ١٩٣٩

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

[مقدمة المؤلف]

الحمد لله الذى أعْلَى مراتبَ العلماء الأعلام ، وزكّى منهم العقولَ الرّاجحة والأحلام ، ومَنحهم مآثرَ تقْصُر عَنْ جَمْعها[1] المَحابرُ والأقلام ؛ ومَفاخِرَ طارت كلّ مَطَار . وجعل مَعاليَهم زاهرة زاهيه ، وأضواء فهُومهم نامية ساميه ، وأنواءَ[2] عُلومهم هامِعة هاميه[3] ؛ بِوَاكِف الأمطار[4] ، وأطْلَعهم على دَقائقِ الأسرار . وهَداهم وهَدَى بهم إلى ترتيب المَدارك ، وتقريب المسالك ؛ وجَلّى بمَشارق الأنْوار مِنْ مَعارفهم وآدابهم ، عمّن تمسك بأذيالهم وأهْدابهم ، غَياهبَ الجَهْل الحَوالك[5] ؛ فأضاءت الأقطار . وعرّفهم المَقاصد الحِسَان ، والوسائل المُغْتَبَطَة والإلماع[6] ، بأصول الرّواية والسّماع ؛ والإعلامَ ، بحُدود قواعد الإسلام ؛ وأرشدهم إلى التنبيهات المُستَنْبَطة السامية الأخطار ؛ حتى رَفَلوا من حُلل التحقيق السابغه ، فى مَطارف[7] وبُرُود ؛ ووَرَدُوا من مَناهل التوفيق السائغه ، كلّ عَذْبٍ

(١) فى ت : « عن فهمها » .
(٢) الأنواء : النجوم ، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى ظهورها ، فيقولون مثلا : مطرنا بنوء الثريا .
(٣) هامعة هامية : أى تسيل فى غزارة وانصباب .
(٤) واكف الأمطار : هاطلها .
(٥) غياهب الجهل : ظلماته . والحوالك : الشديدة السواد .
(٦) الإلماع : التنويه والإشارة .
(٧) المطارف : أردية من خز مربع ذى أعلام ؛ الواحد : مطرف كمنبر ومقعد .

بُرُود[١] ؛ وتنسَّموا من حُجَج الحق البالغه ، الروضَ المِعطار ؛ واجتنَوْا أزاهِر[٢] ، أضحت مُنْية الطالب ، و بُغْية الرائد[٣] ؛ واجتَلَوْا[٤] جواهر[٥] ، نُظِمت منها الدُّرر والفَرائِد ؛ فى أجياد[٦] الأسْطار . فإن أمَّهم ناقصٌ عَديم ، ألفَى لديهم الغُنْيةَ والإكمال ؛ أو قَصدهم عَليل سقيم ، وجَدَ فى يديْهم الشِّفاء ، فنال غايةَ الآمال ، وظَفِر بمُنْتهَى الأوْطار[٧] . والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمّد أفضلِ العالَمين بإطلاق ، سِرَاج المُريدين ، وكَنْز العارفين ، الذى لا يُخْشَى معه إمْلاق ، عُمْدتنا العُظْمى ، ووسيلتنا الكُبْرى عند الملك الخلّاق ؛ صاحب المُعْجِزات الباهره ، التى اهتدى بها ذَوُو الأفكار ، والآيات الظاهره ، التى حصل بها التمييز[٨] لمَنْ له استذكار ؛ المُوطَّأُ الأكناف[٩] والأخلاق ، المُنْتقَى من أعظم الذخائر ، وأنفس الأعْلاق[١٠] ، المُخْتار من قَبْل نَشْأة آدمَ والكونُ

(١) البرود : البارد .
(٢) فى ط : « أزهارا » .
(٣) الرائد : الذى يتقدم القوم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث .
(٤) اجتلى : نظر .
(٥) فى ت : « بواهر » .
(٦) فى ت : « بأجياد » .
(٧) الأوطار : جمع وطر «بالتحريك» ، وهو الحاجة .
(٨) فى ت : « التمهيد » .
(٩) الموطأ الأكناف : الكريم الدمث الأخلاق .
(١٠) الأعلاق : جمع علق ، وهو النفيس من كل شىء .

وقد ذكر المؤلف هنا — على سبيل التورية — أسماء طائفة من الكتب ، للقاضى عياض وغيره ، وهى : « الروض المعطار ، فى أخبار الأقطار » لأبى عبد الله الحميرى ؛ و « منية الطالب ، لأعز المطالب » لم يعلم مؤلفه ؛ و « بغية الرائد ، لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد » ؛ و « الغنية » و « الإكمال لكتاب المعلم ، فى شرح صحيح مسلم » ، وهذه الثلاثة للقاضى عياض ؛ و « سراج المريدين » لأبى بكر بن العربى . و « كنز العارفين » لم يعلم مؤلفه ؛ و « الذخائر والأعلاق ، فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق » لأبى عبد الله الباهلى الإشبيلى ؛ و « الموطأ » للإمام مالك . و « المنتقى » اسم لعدة كتب .

لم تُفتح له أغْلاق ، صَلَّى اللهُ وسلّم عليه وعلى آله وأصحابه ، الذين لنُجومهم فى سماء الحق ائتلاق ؛ صلاةً وتَسْليما دائمَيْن ، ما أُنشئت فى ثنائه الأحمدىّ ،
[٣] وأُنشدت بفِنائه المحمّدىّ ، القصائدُ والأبياتُ والأشطار . و بعد[١] :

فيقولُ أحمـــدُ ذو القُصُو رِ المَقَّرِىُّ إذا انتسبْ[٢]
جَبَرَ المُهَيمنُ صَـدْعَهُ ووَقاهُ سَيِّئَ ما اكتسب
وحَبَـاهُ مِنْحةَ مُؤْمِنٍ مَحَضَ العبادةَ واحتسب[٣]

وأَسْدى إليه من المَواهب أَسْناها ، ومن العواقب حُسْناها :

إنه لما سَبق القضاء وجَرَت الأقدار ، بارتحالى عن الوطن المَحْبوب والقَرار ، بعد أن شَمِمْت عَرارهُ[٤] النَّجْدِىّ ولا أشجانَ ولا أكدار[٥] ، فى عَشِيَّة لم يكن بعدها من عَرار ؛ ونَزَحْتُ عن بلد ، به الوالدُ وما وَلَد ؛ مَحَلِّ قَطْع التَّمائم[٦] ، وفَتْح الكمائم[٧] ، سقَى اللهُ عِهَادَه[٨] صَوْبَ الغمائم :

بَلَدٌ تحُفّ به الرِّياضُ كأنهُ وَجْهٌ جَميل والرياضُ عِذَارُهُ[٩]

---

(١) فى ت : « أما بعد » .
(٢) القصور : العجز .
(٣) محض العبادة : أخلصها . واحتسب : نوى بعمله وجه الله .
(٤) العرار : بهار البر ، وهو نبت طيب الريح ؛ يشير إلى قول الصمة القشيرى :
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
(٥) فى ط : « بعد أن شممت عرارة النجد من الأشجان والأكدار » ؛ ولا يستقيم بها الكلام .
(٦) التمائم : خرزات كان الأعراب يعلقونها على أولادهم يتقون بها النفس والعين بزعمهم . يريد بقطع التمائم : وقت أن شب وترعرع .
(٧) الكمائم : أغطية الزهر . يريد وقت تفتح زهرة صباه .
(٨) يريد « بالعهاد » : جمع عهد ، وهو الزمان . وفى كتب اللغة أن العهاد جمع العهد ، وهو المطر بعد المطر . أما العهد للزمان فجمعه عهود .
(٩) العذار : جانب اللحية . وهذا البيت والذى بعده للسان الدين بن الخطيب .

وكأنّما وادِيهِ مِعْصَمُ غادةٍ ومِنَ الجُسور المحكَماتِ سِوارُه

وكانَ ذلك وغُصْن النشاط يانع[١] ، وبُرْد الشباب قَشيب ؛ وشَمْل النفس مجتمع دون مانع ، وكأس[٢] الأنس مُزج بتَسْنيم القُرب وشِيب[٣] ؛ وفَوْد[٤] الرأس غير خاضع ولا خانع ، إذ[٥] لم تَطْرُق ساحتَه ولم تَجُس خلالَه جيوشُ المَشيب ؛ حللتُ الحَضْرة الفاسيَّة — حاطها الله — حيثُ المجالس غاصّه ، بالعامة والخاصّه ؛ والمساجد آهلة مَعْموره ، والمشاهد بالزُّوار مَغْموره ؛ وحُلَل المعارف فَضْفاضه ، والعوارف[٦] الجليلة مُفَاضه ؛ حَضرة دِيباجُها رَبيعيّ ، وامتزاجها بالنفوس طَبيعيّ ، ولم لا ، وقد نَظَمت المفاخرَ ونَسَّقَتْها ، وجَمَعتِ الآثرَ وَوَسَقَتْها ، جادَتْها غُرُّ السُّحُب[٧] وسَقَتْها :

بِلادٌ بها الحَصْباء دُرٌّ وتُرْبُها عَبيرٌ وأَنْفاس الرِّياح شَمُولُ[٨]

تسلسلَ منها ماؤُها وهو مُطْلَقٌ وصحَّ نَسيمُ الرَّوْض وَهْو عَليل

فأَلقيتُ بها عَصَا التَّسْيار ، وقاها الله من الآفات والأَغْيار ، وأُقتفيت فى ذلك سَنَنَ بعضِ سَلَفى الأَخيار ؛ إذ كان أشهرَ أسلافنا الشيخُ الإمام — صاحبُ التصانيف الشهيرة ، التى اقتادت المَحاسن بزِمام ؛ القاضى الأشهر ، العلّامة

---

(١) الأصل فى اليَنع : نضج الثمار .

(٢) فى ط : « وكأن » .

(٣) تسنيم : ماء فى الجنة . وشيب : خلط (بالبناء للمجهول فيهما) . ولعله راعى المضاف إليه فذكر الفعلين .

(٤) الفود : معظم شعر الرأس مما يلى الأذن . ويريد بخضوعه وخنوعه : إمالته من كبر وضعف .

(٥) فى ط : « إذا » وهو تحريف .

(٦) العوارف : جمع عارفة ، وهى المعروف .

(٧) فى ت : « السحاب » .

(٨) العبير : الزعفران ، أو هو أخلاط الطيب . والشمول : الخمر ، أو ما برد منها .

الأظهر ، سيّدى أبو عبد الله محمد [بن محمد[١]] بن أحمد المَقَّرِىّ القُرشىّ ، التِّلِمْسانىّ النشأة والقَبْر ، أفاضَ الله سِجَال[٢] الرحمة على مَثْوى ذلك الحَبْر — انتقلَ إليها أيّام السلطان المرحوم أبى عِنان فارس ، فولّاه قضاءَ جماعتها ، وبَنَى له[٣] المتوكليّةَ أعظمَ المدارس ، حَسْبما ذَكَره غيرُ واحد من أهل الفهارس ، وأشار إليه الوزير ابنُ الخَطِيب فى كتاب « الإحاطة » التى أحْيَت من التاريخ الرَّسْم الدَّارس .

ولم تزل كُتُب الأقارب والإخوان ترد علىّ ، وتَثْنِى عِنانَ أعتنائها إلىّ ؛ وتَكَرَّر وتَعَدَّد ، وتنتاب وتَتَرَدّد ، وتتنوّع وتتجدّد ؛ فأرتاحُ إليها ارتياحَ الغُصْن عند هزّته ، وأحِنّ إليها حَنين كُثَيِّرٍ إلى مَعاهد عَزّته :

[٤] يا مَنْ يُذكّرُنى حَدِيثَ أحبّتِى ... طابَ الحديثُ بِذِكْرِهِمْ ويَطِيبُ
أَعِدِ الحديثَ علىّ مِنْ جَنَبَاتِهِ ... إنَّ الحديثَ عن الحَبِيب حَبِيبُ[٤]

وكثيراً ما يحرّك ذلك منّى كامنَ شوق ، شَبّ عَمْرُه عن الطَّوْق[٥] ؛ وأجد من لَوَاعِج الأُوَار[٦] ، ما وجده الفرزدق عندَ[٧] مُبَاينة النَّوَار[٨] :

(١) زيادة عن الإحاطة ونفح الطيب .
(٢) جمع سجل ، وهى الدلو الضخمة المملوءة بالماء .
(٣) فى ت : « وبذله » وهو تحريف .
(٤) جنباته : نواحيه .
(٥) أى جاوز حد الاحتمال ؛ مأخوذ من المثل : « كبر عمرو عن الطوق » . قاله جذيمة لعمرو بن عدى ، ابن أخته رقاش ، حين رأى عليه طوقا من ذهب كان له فى صغره ، وقد طوقته به أمه بعد غيبة غابها عنها ، فى حديث طويل ، ذكره الميداني في أمثاله وصاحب القاموس فى مادة « طوق » .
(٦) لواعج الأوار ، أى حرق نار الشوق .
(٧) فى ت : « من » .
(٨) يشير إلى ندم الفرزدق لما طلق امرأته النوار فى قوله :
تندمت ندامة الكسعى لما ... غدت منى مطلقة نوار

بَلَدُ الجزائر ما أَمرَّ نَوَاها كَلِفَ الفؤادُ بحُبِّها وهَوَاهَا
يا عاذِلِى فى حُبِّها كُنْ عاذِرِى يَكْفِيكَ منها ماؤُها وهَواها

والحنين إلى الوطن مَجال لكل حُرٍّ ومِضْمار !

إِيهٍ أحاديثَ نَعمانٍ وساكِنِه إنّ الحديث عن الأحْباب أَسْمارُ

وليس بمُسْتَنكرٍ حنينُ الناب[1] إلى عَطَنه[2] ، والمرءِ إلى محلّ نَشأته ووطنه . وقد رَوَيْنا فى الصحيح من حَنِين سيّد الوجود عليه الصلاة والسلام وأصحابه إلى مكة ، ما لا يجهله إلا من هو عن العلوم بمَعْزِل . ومن الأبيات السائرة :

كم منزلٍ فى الأرض يألفُه الفتى[3] وحَنِينُه أبدًا لأوّل مَنْزِلِ

وربّ ذِكْرى أثارت الأشواق وحرّكتها ، وأَنْشبت النفوسَ فى حبائل البُوس وتَرَكتها ؛ وكم من ماجدٍ بكى لفَقْد المَشاهد ، وأهتمّ لبُعد المعالم والمعاهد :

سلامٌ على تلك المَعاهد إنها مَرَاتع أُلّافى وعَهْد صِحَابى
ويا سَرْحة الحىّ أُنعِمى فلَطالما سكبتُ على مَثْواكِ ماء شَبابى

فلله تلك المعاهد ، ما أبهج مُحيّاها ! وحاط[4] بعين كلاءته تلك المشاهدَ ، مَا أطيبَ[5] رَيّاها ، حين باكرَها الوَسْمىّ[6] وحيّاها :

---

(١) الناب : الناقة المسنة ؛ وهى مؤنثة . وقد أعاد الضمير عليها مذكرا ، كأنه نظر إلى الأصل ، وهو الناب من العظم ، فهو مذكر فى الأشهر .
(٢) العطن : وطن الإبل ومبركها حول الماء .
(٣) كذا فى ط وديوان أبى تمام . وفى ت : « كم من منازل كان يألفها الفتى » .
(٤) فى ت : « وبعين كلاءته » .
(٥) فى ت : « فما أطيب » .
(٦) الوسمى : مطر الربيع الأول ؛ لأنه يسم الأرض بالنبات . ويليه « الولى » وهو المطر الثانى .

حَيّا تِلِمْسانَ الحَيَا فرُبُوعها صَدَفٌ يَجُود بدُرِّهِ المكنونِ[١]
ما شِئتَ من فَضْلٍ عَمِيم إنْ سَقَى أَرْوَى ومَنٍّ لَيْس بالمَمْنون
أو شِئتَ من دِينٍ إذا قِدْحُ الهُدَى أَوْرَى وَدُنيا لم تكنْ بالدُّون[٢]
ورَدَ النسيمُ لها بنشْر حَديقةٍ قدْ أزهرت أفنانُهـا بفُنون[٣]
وإذا حَبيبةُ أمّ يحيى أَنجَبَتْ فلها الشُّفُوف على عُيون العُون[٤]

طالما ذكَّرتِ الأُبُلَّةَ وشِعْب بَوّان[٥]، وأَنْسَتْ صُروفَ الزّمان الخَوّان، وأنبتت أزهار أُنس ذاتَ ألوان، وثِمار نخل من القُرب[٦]، صِنوانٍ وغير صِنْوان[٧]، والشملُ مُجْتَمِع بالجيران[٨] والإخوان؛ والروض مَطْلُول النبات[٩]، مُخْضَرُّ العذَبات[١٠]، مُخْضَلُّ الجَنَبات[١١]، مُفَوَّف الخمائل[١٢]،

---

(١) الحيا: المطر. وهذه الأبيات للسان الدين بن الخطيب.
(٢) أورى: أنار وأضاء.
(٣) نشر الحديقة: ما ينتشر عنها من رائحة طيبة.
(٤) حبيبة أم يحي: عين ماء بتلمسان ماؤها عذب. (عن هامش الأصل المخطوط). والشفوف: الرقة. والعون: البقر الوحشى. أى أن ماءها أصفى وأرق من عيون العون.
(٥) الأبلة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة. وشعب بوان: بفارس، وهو والأبلة من متنزهات الدنيا، التى سار ذكرها.
(٦) فى ت: «من العزب».
(٧) الصنوان: المجتمعة، أو التى أصلها واحد.
(٨) فى ت: «بالأقارب».
(٩) مطلول النبات: مندى بماء الطل.
(١٠) العذبات، أى أطراف الأغصان.
(١١) مخضل: مبتل. والجنبات: النواحى؛ أى إنه غير جاف ولا متصوح.
(١٢) مفوف: فيه بياض. والخمائل: جمع خميلة، وهى الأرض ذات النبات؛ يصف نبات هذه الخمائل وقد ظهر عليه النور الأبيض.

مُتَضوِّع الشمائل[١] ؛ مُنْسَاب الماء ، مُنْجَاب السماء[٢] ؛ والغصون مُتأوِّدة الأعطاف[٣] ، دانية الجَنَى والقِطاف ، والنسيم يَعْبَق نَشْرا ، والجوّ يتألّق رونقاً وبشرا ؛ فتقصُر عنه أوصاف ذوى[٤] الإنصاف :

والزَّهْر حيّانا بثَغْر باسِمٍ والنَّهر قابلَنا بقلبٍ صافِي

ولآلِئ الأنداء[٥] فى الغدير غَرْقَى ، ودموع النهر لا تَرْقَا[٦] ؛ والزهر يسقط ، وأكفّ الريح تكتب ، والغمام يُنَقِّط :

كأن أكفّ الريح تكتبُ أسْطرًا على النَّهْر إلّا أنّ أحْرفَها زُرْقُ

فتَحنِي عليهن الغصونُ قُدودَها لتقرأها جَهْرًا من الوَرقِ الوُرْق[٧]

والورقاء تَهتِف لفَقْد إلْف نازح ، فتَهيجُ شَجْو الجادّ والمازح : [٥]

رُبَّ ورقاءَ هَتوفٍ بالضُّحى ذاتِ شجْوٍ صَدَحَتْ فى فَنَنِ

ذَكَرَت إلفًا ودَهْرًا صالحا فبكتْ شَجْوًا فهاجَتْ حَزَنِى

فبُكائى ربّما أرَّقَها وبُكاها رُبَّما أرَّقَنى

فإذا تَبْدَؤنى أُسْعِدُها وإذَا أبْدؤها تُسْعِدُنى[٨]

ولقدْ تبكِى فَما أفهمُها ولقدْ أبكِى فما تَفهمنى

غيْرَ أنّى بالشَّجَا أعْرفُها وهْىَ أيضاً بالشَّجَا تَعْرِفُنى

---

(١) التضوع : انتشار الرائحة الطيبة . والشمائل : جمع شمال وهى الريح . أى أن الرياح تنبعث معطرة بأريج هذا الروض .

(٢) كذا فى ط . ومنجاب السماء ، أى سماؤها صافية . وفى ت : « منجاف » .

(٣) متأودة : تهتز وتميل . والأعطاف : جمع عطف ، وهو الجانب .

(٤) فى ت « ذى » .

(٥) كذا فى ت . وفى ط : « الأنواء » . وهى النجوم ، وقد يراد بها المطر .

(٦) لا ترقأ (بالهمز وسهل) : لا تسكن .

(٧) الورق : الحمام ؛ الواحدة : ورقاء .

(٨) أسعدها : أعينها على البكاء .

فأكرِمْ بها من ذات طوْق ، عبّرت عما فى ضميرها من جَوًى وشَوْق ، فساقت لواعجَ الأفكار أى سَوْق ، وبينها وبين الصَّبِّ فَرْق ، عند ذوى الذَّوْق :

وترَنَّمَتْ ذاتُ الجَناح بسُحْرةٍ بالوادَيْن فهيَّجَتْ أشواقِى
وَرْقا تَعلَّمَتِ البُكا والبَثَّ مِنْ يَعْقوبَ والألْحانَ من إسْحاق[1]
أنَّى تُضاهينِى هَوًى وصَبابةً وأسًى وفَرطَ جَوًى وفَيْض مآقى[2]
وأنا الذى أُملِى الهوى من خاطِرى وهى التِى تُمْلِى من الأوراق

فما كان بأسرع من تمزيق ذلك الإهاب ، وحُصول شَمله فى يد الانتهاب ، وإنشاد لسان حاله عند الذّهاب :

ألاَ إنَّ هَذَا الدهرَ يومٌ وليلة[3] يَكُرَّانِ من سَبْتٍ عليك إلى سَبْتِ
فَقُلْ لجديد العَيْش لا بُد من بِلًى وقل لاجتماع الشَّمل لابد من شتّ[4]

وهكذا الدنيا إخْلاء وإمْرار ، وإقرار وإنكار[5] ، وإعلان وإسرار تعفِّى كل رَبْع عامر[6] ، وتبدّد شَمْل كل مأمور وآمر :

كأنْ لم يكن بين الحَجون إلى الصّفا أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكة سامِرُ[7]

بعدما نَعِمنا بُرْهة من [الزمان ، فى ظلال[8]] الأمان ؛ وقطعنا نُبذة من

(١) يعقوب : هو يعقوب النبى والد سيدنا يوسف عليهما السلام . وإسحاق : هو ابن إبراهيم الموصلى ؛ من شيوخ المغنين فى الدولة العباسية .
(٢) تضاهينى : تشاكلنى . والمآقى : مجارى الدموع من العيون .
(٣) فى ت : « ألم تر أن الدهر يوم وليلة » .
(٤) شت : تفرق .
(٥) فى ط : « وإنكار وإقرار » .
(٦) تعفى : تطمس وتغير ، والربع : المنزل والدار .
(٧) الحجون والصفا : جبلان بمكة . وهذا البيت لعمرو بن الحارث بن مضاض .
(٨) زيادة عن ت .

الشّباب ، فى مواطن الأحباب ؛ ما بين دراسة ودِراية ورواية ، وممارسة أمور تُبعد عن طُرق الغَواية ؛ وتَحْبير طُروس ، وملازمة دروس ، ومُثول بين يدى أشياخ مجالستهم نامية الغُروس ؛ وخصوصاً شيخَهم الذى [فضله[1]] لا يفتقر إلى دلاله ، عمّنا مُفْتِيَها سيدى سعيد بن أحمد المَقّرىّ ، شَكَر الله خِلاله ، فهو شيخ أولئك[2] الأعلام الذين وَرِثوا العلم عن غيْرِ كَلاله[3] ، وعَمروا رُبوع المجد ، وتَفَيّئوا ظِلاله ، وأرشدوا إلى سُبُل الهُدَى ، وأزاحوا عن الضّلاله ، وعَمَرَت أرضُهم بكل مجد وجَلاله ، وإن نَبَتْ[4] بى لا عن جَفوة ومَلاله ؛ فآهًا على ذلك العَصْر ما أبهاه وأجمله ! وأتمّه وأكمله ؛ عصر يكاد يُكلّمنا فيه الجمادُ ، ويُرْوينا الثِّماد[5] ؛ وتُحيينا العشيات والبُكَر ، ولا تَنْتابنا التّعلاّت ولا الفِكر ؛ فإن سألنا فعَنْه فى الحقيقة ، وإن صَرّحنا أو كَنَيْنا ، فنعنى حِماه وعَقِيقه :

نُسَائلُ عَن ثُمامات بحُزْوَى ... وبانُ الرَّمْل يَعلمُ ما عَنَيْنا[6]
وقد كُشِفَ الغِطاء فما نُبالى ... أَصَرَّحْنا بذكرىٰ أَمْ كَنَيْنا
ولو أَنّى أُنَادِى يا سُلَيمَى ... لقالُوا ما أردتَ سِوى لُبَيْنى
أَلاَ لِلّه طَيْفٌ كان يَسْقِى ... بكاسات الكَرى زُورا ومَيْنا
فأمسينا كأنّا ما افْتَرَقْنا ... وأَصْبَحْنا كأنا ما الْتَقَيْنا [٦]

وكنا نحسَبُ أن الدهر لا يَدُور ، وأن الأعجازَ صُدور ، والأهلةَ بُدُور ؛

---

(١) زيادة عن ت .
(٢) فى ط : « هؤلاء » .
(٣) عن غير كلالة : أى باستحقاق . وفى ت : « لا عن كلالة » .
(٤) فى ت : « نفت » .
(٥) الثماد (ككتاب) : جمع ثمد ، وهو الماء القليل .
(٦) الثمام : نبت قصير ضعيف لا يطول . وحزوى (بالضم) : جبل من جبال الدهناء . والبان : الكثيب من الرمل .

حتى ضرب الدهرُ ضَرَبانَه[١] ، وبدّد الرَّفيق من ذلك الفريق وأبانَه ؛ فلم تتأوّدْ قُدود الأغصان ، ولم تَتَرنّح أعطاف البان ؛ وانقطعت الأسباب ، عن مواصلة الجيران والأحباب ؛ الذين :

جَرَى[٢] بعضهم ذاتَ اليمين و بعضُهم شِمـــالاً وقلبي بينهم مُتوزِّعُ
فوالله ما أدرى بلَيْـل وقد مَضَت حُمولُهُمُ أيَّ الفريقين أَتْبَع ؟

وهأنا الآن أحاول إطفاء لهيبٍ بالضلوع وَقَدْ[٣] ، وأعالج أدواء سُقْمٍ جَلَّ وكيف لا وقَدْ :

رُوِّعْت بالبَيْن حتى ما أُراعُ بِهِ وبالمَصائِب فى أهلى وجِيرانِى
لم يترُكِ الدهرُ لى عِلْقاً أَضَنُّ به[٤] إلا رَمَاه بفَقْد أو بِهِجْران

وفى هذا التاريخ الغَريب ، وردتْ كتبٌ من تلك الناحية حركت شَجْو الغريب ؛ والشوقُ إلى لقائهم ، والتَّوْقُ إلى ما يَرِد من تِلقائهم ، يقتادان القَلْب بزِمام فَيَنْقاد ، و يُوقِدان نار الوَجْد بين الضلوع أى إيقاد :

هى الدارُ لا أَصْحُو بها عن عَلاقة [لأمر لنـا بين الجَوانح مُضْمَرِ
فخادَ عَلَى أرجائها الغيثُ إنّهـا منازلُ جيران كـرام ومَعْشر][٥]

وكان من جُملة فُصولها ، وفُروع أصولها ؛ طلبُ التَّعريف والإلمام ، ببعض أحوال الشيخ الإمام ، قاضى الأئمة وعَلَم الأعلام ، عُمْدة أرباب المحابر والأقلام ، ومَفْخَر عُلماء الإسلام ، ذى الفَضائل التى استقلّت رسومُها[٦] ، فلم تحتج إلى إعمال

(١) ضرب الدهر ضربانه : أحدث حوادثه .
(٢) فى ت : « حدا » .
(٣) وقد : اتقد واشتعل .
(٤) فى ت : « أظن » ، وهو تحريف .
(٥) ما بين القوسين ساقط فى ت .
(٦) استقلت : علت فبانت وظهرت . والرسوم : جمع رسم ، وهى الآثار التى لاظل لها .

الأعلام[١] ؛ والمَحاسن التى بَهَرت أقمارًا وشُموسا ، سيّدى أبى الفَضْل عِياضِ ابن موسى ؛ الشهير الصّيت فى كل قُطْر ، صَبَّ الله على مَثْواه من الرّحمات شآبيبَ القَطْر :

فهو الإمامُ الذى سارت مآثرُه ... فى الشَّرْق والغَرْب سيرَ الشَّمس والقمرِ
وكم له من تآليفٍ قد اشتهرَت ... بكل قُطْر فسَلْ تُنْبيك عن خَبَر

فقلت : مالى بهذَا الأمرِ يَدَان ، ولو أيَّدنى كلُّ قاص ودان ؛ وماذا عسى أن أصِف من جَلالة يتهلّل بِشْرُها ، وجَزالة يتضوّع نَشْرها ؛ و بلاغة تَبذّ بلاغة سَحْبان ، و براعة تَقاعس عن رُتْبتها[٢] الشِّيبُ والشبان ، وعِلْم أظْهر غوامِض الحَقائق وأبان ، وحِلْم أرْسخ من رَضْوى وأبان[٣] ؛ ومَحاسن ، ماؤها غير آسِن ، وحُلَى ، حازت مراتب العُلَى ، ومصنّفات ، مُقَرّطات مُسَنَّفات[٤] ، أعْلاقٍ لا تَعدِلُها الأثْمان ، ولا تُشَدّ على مثلها الأيْمان[٥] .

على أنى لستُ من رجال هذا المَجال ، ولا من فُرْسان مَيْدان الإحسان ؛ إذ الباعُ قصير ، والعَقل بقواعد العلم[٦] غيرُ بَصير ؛ والقلب حليف أشجان وأوصاب ، والفكر أليف غُصَص تجرّع منها جَنَى حَنْظلٍ أوْ صَاب[٧] ؛

(١) الأعلام : العلامات يهتدى بها فى الطريق ؛ الواحد : علم .
(٢) فى ت : « وثبتها » .
(٣) رضوى : جبل بالمدينة . وأبان : جبلان ، الأبيض والأسود ، بينهما نحو فرسخ ، الأبيض لبنى جريد من فزارة ، والأسود لبنى والبة منى بنى الحارث بن ثعلبة . (انظر معجم ما استعجم للبكرى) .
(٤) مقرطات : ذات أقراط . ومسنفات ذات شنوف ، وهى الأقراط توضع فى أعلى الآذان .
(٥) الأيمان : جمع يمين ، وهى اليد اليمنى .
(٦) فى ت : « العلوم » .
(٧) الصاب : شجر مر .

لا أستطيع إنشاء قول ، ولا أفكر[١] إلا فى هَمٍّ أو هول ؛ إلى ما دَهِم من الفتن ،
[٧] التى مَحت مابالدهر[٢] من ازديان ؛ وطَرَق من المحن ، التى يُغنى عن خَبَرِها العِيان ؛
فتنوّعَت منها الأعداد ، إلى أفراد وأزواج ؛ وكَثر التَّرداد ، من الخطوب ذات
الجموع والأفواج ؛ وتفاقَم وازداد ، هول بحُورها المُتلاطمة الأمواج :

حملنا من الأيام ما لا نُطيقه كما حمل العظمُ الكسير العَصائبَا[٣]
وعصر رجونا منه إبداء مِنْحة فأَبْدى ولكن مِحنةً ومصائبَا[٤]

وما حال من قَرَتِ[٥] المَصائبِ عيونَه دُموعا وجوانحه جَوى ، ورَمته
النوائِب[٦] عن قِسِيّ النَوى ؛ فخلع على الكواكب كَراه ، وبرّح به الشوق
وبَراه . وقطع ودِج[٧] صبره وفَراه[٨] ، واعتراه من دَهْره ما اعتراه ، وضاعف
ما به كَذِبُ حاسد[٩] افتراه ؛ يأكل المَحاسن ، ويَجْهَل بمساويه أن يحاسن ؛
ويُعيد الحق باطلا ، والحالىَ عاطلا ؛ ويَقْلِب المِنحة مِحْنه ، ويرى المصافاة
إحنه ؛ يخاتل مخاتلة الذّيب ، ويُكدِّر مناهل الخُلُوص والتهذيب ، ويقابل الحق

---

(١) فى ت : « ولا فكر » .
(٢) فى ت : « إلى فادح من الفتن التى محت هابا الدهر » . وهو تحريف .
(٣) الكسير : المكسور . والعصائب : جمع عصابة ، وهى مايلف حول الجبيرة ونحوها .
(٤) رواية هذا البيت فى ت :

وعصر رجونا أن يجود بمنحة وإدراك آمال فأسدى المصائبا

(٥) كذا فى ط . وقرت : زودت ، من القرى ، وهو الطعام يقدم للضيف . وفى ت : « وقرت » . ووقرت ، أى حملت (بالتضعيف) . والمعروف فى هذا المعنى : أوقر .
(٦) فى ط : « ورمته سهام النوائب » .
(٧) كذا فى ط . والودج (محركة) : عرق فى العنق . وفى ت : « وجد » .
(٨) فراه : قطعه .
(٩) فى ت : « خاسر » .

الواضح بالتكذيب ؛ ويشتغل بما لا يعنيه ، ويُعْرِض عما يقرّبه إلى ربه ويُزْلِفُه ويُدْنيه[١] :

لى حيلة فيمن يَنِمُّ وليس للكذّاب حيلهْ
من كان يَخْلق ما يقو لُ فحيلتى فيه قليله

إلى الله المُشتكى من هذا وأضرابه ، مِمَّن لم تَصْفُ مواردُ شرابه :

مضت أعمارُنا ومضت سِنُونا ولم تَظْفر بذى ثِقَةٍ يدانِ
وجرّبنا الزّمان فلم يُفِدْنا سوى التّخْويفِ من أهل الزمان

ولا غَرْوَ أن كان لأهل الزّمان به اشتباه ، ولله قولُ بعض أهل الذكاء والتيقظ والانتباه :

والناس مثلُ زمانِهِمْ قَدُّوا[٢] الحذاء على مثالِهْ
ورجال دَهْرك مثل دهرك فى تَقلُّبه وحاله
ولذا إذا فَسَد الزما ن جرى الفَسادُ على رجاله

أستغفر الله ، هذه نَفْثة مَصْدور ذى أَلَم ، أو هَفْوة مَغْمور ساعدها طُغيان القَلَم :

نَذُمُّ زماناً ما له من جِناية ونشكوه لو تُغنِى عن المرء شَكواهُ
ولا ذَنْب فينا للزمان وإنما جَنَينا فعُوقبنا بما قد جَنيناه
هو القَدَر الجارى عَلى الكَره والرِّضا فَصبْرًا وتَسْليما لما قدّر الله

ونفوسنا أولى باللّوم ، لو سلكنا سبيل خِيار القوم ؛ واقْتَفَيْنا سَنَن التقوى ، وتمسّكنا بحَبْل التوفيق الأقوى :

---

(١) فى ت : « يقربه لربه زلفى ويدنيه » .
(٢) كذا ط ولعلها محرفة عن : « حذو » أو « قد » وكلاهما مصدر بمعنى قطع الشيء على مثال شيء آخر .

وما دارنا إلا مَوَاتٌ لَوَ أننا نُفَكِّر والأخْرى هى الحَيوانُ
شَرَينا[1] بها عزًّا بهُونٍ جهالةً وشَتّانَ عزٌّ للفتى وهَوان

وحُق لمنْ عَلِم تقلّبات الدهر بأهله وتصرّفاته ، أن يستعمل ما بقى من عُمره فيما يُوصله إلى منازل النعيم المُقيم وغُرُفاته :

للدهر قَوْسٌ لا تزال سِهامُها تُصْمِى الأنامَ أصاغرًا وأكابرَا
طُوبى لمن هَجر القَبيحَ ولم يكن إلّا على فعل الجَميل مثابرا

جعلنا الله ممّن ثابر على فِعل الجميل ، وبلغ من خير الدارَيْن غاية التأميل .

وحين ورد علىّ هذا الخِطابُ الذى تقدّم ، وأَلْفَى ركن الاصطبار كاد يتهدّم
[٨] أو تهدّم ؛ أضربت عن جوابه حِيناً من الدهر ، وماطلت مُقْتَضِىَ دَيْنه من يوم إلى يوم ، ومن شهر إلى شهر ؛ والأرض تَميد اضطراباً واختلالا ، والأحوال تزيد دَنَفاً واعْتلالا ؛ وأنا أحوم على مناهل الجواب حَوْماً ، وأروم الوُرود فى مَشاربها العَذْبة يوماً فيوماً ؛ والأيام لاتسمح بنَهْله ، ولا تَفسَح[2] إليها فُسْحة ، ولا توسعها مُهْله ؛ ثم وقع العَزْم والتصميم على جواب هذا السائل ، راجيًا من الله سبحانه أن يكون ذلك من أفضل القُرَب وأعظم الوسائل ؛ ودخلت من هذا الباب بعد أن قرعت ، وأخذت فى هذا الغَرض وشرعت ، وشربت من ماء التَّصْنيف وكَرَعت ، وبذَرت فى أرض التَّأْليف وزَرعت ، هذا[3] مع أنى ما مَهرت ولا برعت ؛ ولا أتقنت لصناعة التأليف عملا :

لكنّ قدرةَ مثلى غيرُ خافيةٍ والنّمل يُعْذَر فى القَدْر الذى حَمَلاَ

وكثيراً ما خرجتُ من الشىء إلى ما يناسبه ويدانيه ؛ وربما أبعدت

(١) شرينا (هنا) : بعنا .
(٢) فى ت : « تفتح » .
(٣) هذه الكلمة « هذا » : ساقطة فى ت .

النُّجْعة[١] ، ثم وقعت الأوبة والرَّجْعة ؛ على رَغْم أنف قالِي ذلك وشانيه ، وقرّبت بذلك كلّه شاسعاً ، كى تسهل مئونته على مُعانيه ، وهصَرت أفنان ألفاظه ومعانيه ؛ ليَقْرُب اقتطافُه لجانيه ؛ وسميته[٢] « بأزهار الرياض ، فى أخبار عياض ، وما يُناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض » ؛ تسميةً وافقت إن شاء الله مَعْناه ، وناسبت منزله ومَغْناه ؛ لأنه جَمع أزاهرَ ذات ألوان ، من وَرْد وأُقحوان ؛ وبَهار[٣] ، عَرْفُه ذو انتشار[٤] ؛ ومَنثور ، روضه مَرِيع[٥] مَمْطور ، ونِسْرين[٦] ، يَفُوق أرَجه مِسْك دارين[٧] ؛ وآس[٨] ، عاطر الأَنْفاس ؛ وشَقِيق[٩] ، خَلِيق بالمَدْح حَقِيق ؛ ونَيلُوفَر[١٠] ، حازَ من المحاسن النصيبَ الأَوْفر ؛ وأجريتُ جداول أنهار ، من الحكايات لسَقْى هذه الأزهار ؛ فأينع النُّوار ، وتألقت الأَنْوار ، وتفنَّن الناظر بين أَنْجاد وأغوار ، ولم يَدْرِ وقد انتقل من أطوار إلى أطوار ، وتأمل صَرْحا[١١] بُنى على غير [شفا[١٢]] جُرُفٍ هَار :

أَضِياءُ هَدْىٍ أم ضِياءُ نَهارِ وشَذا المَحامدِ أم شذا الأزهارِ

---

(١) النجعة (بضم النون) : الارتياد والطلب .

(٢) كذا فى ت وهو موافق للمصدر الذى بعده . وفى ط : « ووسمته » .

(٣) الأقحوان : نبت طيب الريح ، له نور أبيض كأنه ثغر جارية حدثة السن ، وهو البابونج بالفارسية . والبهار : نبت جعد له فقاحة صفراء ، طيب الرائحة .

(٤) فى ت : « ذو اشتهار » .

(٥) مريع : خصيب .

(٦) النسرين (بكسر النون) : ورد أبيض عطرى الرائحة .

(٧) دارين : فرضة بالبحرين ، يجلب إليها المسك من الهند . (عن معجم البلدان) .

(٨) الآس : الريحان .

(٩) الشقيق : نبات أحمر الزهر مبقع بنقط سود . وفى ط : « والشقيق » .

(١٠) النيلوفر (بفتح النون المشددة وكسرها) : نبات مائى ، له ساق أملس ، فاذا ساوى سطح الماء أورق وأزهر زهراً أبيض ، وسطه زعفرانى اللون .

(١١) فى ت : « سرحا » بالسين .

(١٢) زيادة عن ت .

وقد أفْصح تَرْجُمان التراجم عن عدِّها[١] وسَرْدها ، ولوّح لنُكْتة الاختتام بنَيلوفرها والافتتاح بوَرْدها .

وهى هذه الترجمة :

الأولى : روضة الورد ، فى أوّلية هذا العالِم الفرْد .

الثانية : روضة الأُقحوان ؛ فى ذكر حاله فى المَنْشأ والعُنْفوان .

الثالثة : روضة البَهار ، فى ذكر جملة من شيوخه الذين فَضْلُهم أظهر من شمس النّهار .

الرابعة : روضة المنثور ، فى بعض ماله من منظوم ومنثور .

الخامسة : روضة النِّسْرين ، فى تصانيفه العديمة النظير والقَرين .

[٩] **السادسة** : روضة الآس ، فى وفاته وما قابله به الدهر الذى ليس لجُرْحه من آس .

السابعة : روضة الشَّقِيق ، فى جُمَل من [فوائده ، ولُمَع من[٢]] فرائده ، المنظومة نظم الدرّ والعَقيق .

الثامنة : روضة النَّيلوفر ، فى ثناء الناس عليه وذكر بعض مناقبه التى هى أعطر من المسك الأذفَر .

فدونَك أيها الناظر[٣] روضاتِ أزهار ، وجناتٍ تجرى من تحتها الأنهار ؛ أبوابها ثمانيه ، وقُطوفها دانيـه ؛ تَعَطَّر منها نسيم الصَّبَا بزهر الآداب ، وسما إلى

(١) فى ط : « عددها » .

(٢) زيادة عن ت .

(٣) فى ت : « أيها الأخ الناظر » .

محاسنها من تعلّق من التاريخ بأهداب[١] ؛ لم أُسْبَق إلى مثلها فيما رأيت ، وإن بَعُدْتُ فيها عن المَهْيع المَطْروق ونأيت ؛ والإنسان مُغْرَم[٢] ببُنَيَّات أفكاره ، وإن قُوبل ما صَدر منه بإنكاره ؛ وقد أَنْشدَتْ بلسان حالها ، مخاطبة من رضى بانتسابها وانتحالها :

سَرِّحْ جُفونَكَ فى الحَدا ... ئق وأجنِ أزْهار الرياضِ
مِن وَرْدِ أَحْمَرَ أو شَقا ... ئقَ أو بَهارٍ ذى بَياض
وأشربْ بكاساتِ الرَّقا ... ئقِ من عُيون أو حِياض
وانظُر مناقب ذى الحِجا ... ئقِ عالِمِ الدنيا عِياض

واكرع بماء التعريف زُلالا ، وأَدِرْ كأس التَّشريف حَلالا ؛ وارْوَ من هذا النهر ، واقطِف ما شئت من أصناف الزَّهْر ؛ وأَخطِر هذه الروضةَ ببالك ، وأدر إليها وجهَ قَبولك وإقبالك ؛ فمؤلّفها وإن لم يكن بمُصيب ، ولا ممن له فى الإجادة حظّ وافر ولا نصيب[٣] ، فَمَنْ أُلِّفت فيه تَحْسن بإحسانه وتنال[٤] المرعى الخَصيب :

سلام مثلُ عَرْف المِسك طِيبًا ... وحُسْنا مثل أزهار الرياضِ
على لَفْظِ الجَلالة والمَعالى ... إمام الدِّين والدنيا عِياض[٥]
إذا ما قِيس بالعُلَماء طُرًّا ... غدا بَحْرًا وأَضْحوا كالحِياض

---

(١) فى ت : « قطفا إلى محاسنها من تعلق من التاريخ الأهداب » . وهى ظاهرة التحريف .
(٢) فى ت : « يقرع » وهو تحريف .
(٣) فى ط : « وافر ونصيب » .
(٤) أشير فى هامش ط فوق هذه الكلمة إلى رواية نسخة أخرى ، وهى : « وترعى » .
(٥) رواية الشطر الثانى من هذا البيت فى ت : « ومعنى المجد والعليا عياض » .

وكنت حين شرعت فى هذا المجموع السامى ، وأطْلعت على بعضه صاحبَنا الفقيه العلامة الأصيل الحاجّ الرّحال ، أبا الحسن سَيدى علىّ بن أحمد الخَزْرجىّ الشامىّ ، حفظ الله كماله ، و بلّغه آماله ، خاطبنى بقصيدة من نظمه ، أسْماه الله ، ألمّ فيها بذكر هذا الموضوع بما يقتضيه شرفُ خِلاله ، وكرمُ جَلاله ؛ وأشار فيها إلى نَقْض عَزْم الرِّحلة التى نَوَيت إذ ذاك[1] المكان الشريف ، لا حرَمنا[2] الله من[3] مُشاهدته عن قُرب ، فى حفظ وعافية ، بمَنّه ويُمْنِه . وهى هذه ، وأنشدنيها من لفظه ، وكتبها بخطه ، وأرسلها إلىّ ، شكر الله صَنِيعه :

أَمُفْتِى الغرب أبدعْتُمْ طِرازًا ... نَثرتم فيـــه أزهار الرِّياضِ[4]
ونَظَّمتمْ عُقودًا من لَآلٍ ... لجِيد حُلَى المآثر من عِياض
[١٠] وأورقتم غُصونَ عُـــلاه لَمّا ... سَقاها فِكْرُكمْ سَقْىَ الحِياض[5]
ونَمّقْتم مَطارِف ما رَأينا ... كطُرَّتها سَوَادًا فى بَياض[6]
ونادَيتمْ عَقائلَهـــــا فذَلّت ... شَوامسُها إليكم بارْتِياض[7]
وأسّسْتم من الآثار طُرًّا ... قواعدَ لا تُساوَمُ[8] بانْتِقاض
لك التَّبْرِيز فى العَلْياء فاقضِ ... على عُلمائها ما أنت قاضى

(١) فى ت : « ذلك » .
(٢) فى ت : « لا أحرمنا » .
(٣) المسموع أن الفعلين (حرم ، وأحرم) يتعديان بنفسهما إلى مفعولين .
(٤) الطراز : علم الثوب ، أى ما فيه من نقش .
(٥) جاء بالفعل « أورق » هنا متعديا ، وهو لازم .
(٦) الطرة : نقش فى الثوب يخالف لونه ، يمتد على الجانبين .
(٧) العقائل : جمع عقيلة ، وهى النجيبة الكريمة ، والشوامس : جمع شامسة ، وهى الممتنعة .
(٨) كذا فى ط . ولا تساوم بانتقاض ، أى لا يطمع فى نقضها ، من المساومة ، وهى المجاذبة بين البائع والمشترى . وفى ت : «لا تسام» ، إلا أن الوزن لا يستقيم بها .

تَبـــدَّيتُم بها بَدْرًا وحُزْتم خِصال سباقكم[1] دُون اعْتِراضِ
نُعِتُّمْ بالكَمال بغَيْر عَطْف وكُلُّهُمُ بذاك النَّعْت راضى
وما وَفَّوا بحقّكمُ ولكنْ يُؤَدَّى البعضُ من بعضٍ افتراض
بعِلْمكمُ شَفَيْتم أرْضَ غَرْبٍ وكانت ذاتَ أحشاءٍ مِرَاض
ولمّا أنْ بدَا منكم فِراقٌ تَوَقَّعَتَ أن يَئُول إلى انقراض
وأنّ نُجومها بالبُعد يُخْشَى عليها من سُقوط وانْقِضاض
فأرْسلَ شافِعاً خِلٌّ حَشَـــاه بهذا البُعْد أَمْست فى انفضاض
يُذَكِّركمْ ليـــالىَ نَيِّراتٍ بأُنْسكمُ تُنير دُجَى المُضاض[2]
يَوَدّ الطَّرفُ يجعلها اكتحالًا مكانَ سَـوادهِ دون اغْتِماض
بحقّ الله لا تُبـــدِى دُجاها بغَيبةِ بَدْركم بعـــد ائْتِماض[3]
ولا تُهمِل شـفاعةَ مُسْتَهام صَدوق الوُدّ فى آتٍ وماضى
ودُمْ للدِّين والدنيـا إمامًا وبَحْرَ هُدًى علومُك فى افْتِياض
يَعُمّ الأرضَ ما لاحت[4] بُدورٌ وما فاحت أزاهرُ فى رياض

يَكْرَع منه المملوك عَلًّا ونَهْلا ، ويَضْرع فى الجواب فِعْلاً لا قولا ؛ ويُعيد السلام التامّ ، الزكىّ العامّ ، على المجلس العلمىّ ، ورحمة الله تعالى و بركاته .

انتهى ما كتب به صانه الله ، وأضفى عليه حُلَل المجد .

---

(١) فى ط : « سباقهم » .

(٢) المضاض (بالضم) : وجع يصيب العين (كما فى شرح القاموس) ؛ ويريد بدجى المضاض : ما يجده المريض بعينيه من سواد حالك .

(٣) ائتماض : بريق ولمعان ؛ وهو افتعال من ومض . وفى ط « ائتماض » ، والصواب ما أثبتناه .

(٤) فى ت : « ما دامت » .

وقد ذكرتُ فى هذا الكتاب حكاياتٍ مختلفة ، وفنوناً مفيدة[١] ، يَزْداد الناظر بها معرفة [حَسْبما[٢]] جَرَت بذلك عادة كثير من الأئمة فى مُصنّفاتهم ، ومجالس دَرْسهم . وقد قال الماوردىّ ، أقضَى القُضاة فى كتاب آداب الدين والدنيا[٣] : القلوب تَرْتاح إلى الفُنون المختلِفة ؛ وذَكر أنّ المأمون كان ينتقل فى قَصْره من موضع إلى موضع ، ويُنشد قولَ أبى العتاهية :

[١١] لايُصْلِحُ النفسَ إذ كانت مُدَبِّرَةً إلا التَّنقلُ من حالٍ إلى حالِ[٤]

وقال أبو حنيفة : الحكايات عن العُلماء أحبّ إلىّ من كثير من الفقه ، لأنها آداب القوم . وقال الشيخ سيّدنا أبو القاسم الجُنيد ، رضى الله عنه ، ونفعنا ببركاته : الحكاياتُ جُند من جنود الله ، يُقوّى الله بها أبدانَ المُريدين . وقال الإمام المَوّاق[٥] فى كتابه المسمّى «سند المهتدين[٦]» عن شيخه المَنْتورى ، بسنده إلى أبى العبّاس بن العريف ، قال : كنت فى مجلس أستاذى أبى على الصَّدَفى[٧] أقرأ عليه الحديث ، فقرأ يوماً الحديث ثم أغلق الكتابَ وجعل

---

(١) فى ت : « حكايات عظيمة ، وفنون بديعة » .
(٢) زيادة عن ت .
(٣) هو كتاب « أدب الدنيا والدين » كما فى كتب الفهارس .
(٤) النفس المدبرة : المشغولة بالتفكير فى الأمور .
(٥) كذا فى ط . والمواق ، هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أبى القاسم خطيب غرناطة . وفى ت : « المولق » وهو تحريف .
(٦) كذا فى ط . وهو « سند المهتدين فى مقامات الدين » . والكتاب محفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٨٣٥ تصوف . وفى ت : « سنن المهتدى » وهو تحريف .
(٧) هو القاضى أبو على حسين بن محمد بن حيون بن فيرة الصدفى السرقسطى ، يعرف بابن سكرة وبابن الدراج . لم يكن بشرق الأندلس فى وقته مثله فى تقييد الحديث وضبطه ، والعلو فى روايته . توفى سنة ٥١٤ هـ . (راجع بغية الملتمس للضبى ، ونفح الطيب للمؤلف ، والصلة لابن بشكوال) .

يَحكى حكايات[١] الصالحين ، فوقع فى نَفْسى : كيف يُجِيز الشيخُ أن يَقْطع حديثَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ويحكى الحكايات ؟ قال : فما تمّ لى الخاطرُ حتى نَظر إلىّ[٢] الشيخ شَزْراً ، وقال : يا أحمد ، الحكاياتُ جُنْدٌ من جنود الله يثبِّت الله بها قلوبَ العارفين من عباده . قال : فما بقَى فى جَسدى شعرةٌ إلا قطَر منها العرق . فلما رآنى دَهِشت ، قال لى : يا أحمد ، أين مِصْداق ذلك من كتاب الله ؟ قلت : الشيخ أعلم ؛ قال : قوله تعالى : « وكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ » الآية . انتهى .

وهذا آوان الشُّروع ، وعلى الله قَصْد السَّبيل ، وهو حَسْبى ونعم الوكيل .

---

(١) كذا فى ت وسند المهتدين . وفى ط : « حكاية » .
(٢) كذا فى سند المهتدين ، وفى الأصلين : « نظرنى » .